

لمحةٌ منْ نفحةٍ عن الإنسان في فكر ابن عربي

د. محمود عكام

محاور البحث.

- 1 - لماذا الإنسان؟ أ - الترسيم.
- 2 - أهمية الإنسان عند ابن عربي. ب - التقسيم.
- 3 - هذا هو الإنسان.

1 - لماذا الإنسان؟

الحمد لله منزل الحكيم على قلوب الكلم، وصلى الله على مُمدِّ الهمم محمد صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾.

وبعد:

أ - فالحديث عن الإنسان حديثٌ منّا عنّا، وحديثٌ من حيث المقابلة عمّن أنسنّا، وحديثٌ من حيث التمايز في الخلق عن العالم عامة، أو إن شئت فقل: حديثٌ عن "الإنسان الكبير"، الذي هو العالم كما يسمّيه ابن عربي.

ب - والإنسان محل اهتمام أكبر في المبادئ والمذاهب والتشريعات والديانات، وعلى رأسها ديننا الحنيف، الذي فصل كتابه الكريم في هذا الموضوع أيّما تفصيل، فكان في تفصيله

(1) ر: فصوص الحكم 47/1.

واصفاً ومكلفاً، وفي توصيفه صادقاً وفيّاً، وفي تكليفه مكرماً مشرفاً، وكلّ ذلك آت من كون القرآن كتاب الخالق نفسه، وكون من نزل عليه هذا الكتاب "إنساناً كاملاً"، بالمعنى الدقيق للكلمة، وقد كان ابن عربي أول من أطلق هذا التعبير، وكون حوله نظرية متماسكة، سنمرّ على مجملها في سطور بحثنا هذا^(٢).

ج - والإنسان، إضافة لما سبق، مجلّى إلهي، لا يعني حلولاً ولا اتحاداً، وإنما هو الصورة المسوّاة التي وعت النفخة النورانية المكوّنة ذات السرّ، فاقتضى هذا خلافة عن الحق في رعاية سائر الخلق، قال تعالى: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)، الحجر/29، وقال تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون)، البقرة/30. وقال ابن عربي: "فما صحت الخلافة إلا للإنسان الكامل، فأنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره، وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى"^(٣)، أخذاً مما ورد في الحديث الشريف أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الله خلق آدم على صورته"^(٤)؛ كما استتبع الخلافة أمانة حملها الإنسان دون سواه، والأمانة هذه مكن السرّ في التكليف، وملحظ النظر في التشريف، قد أفلح من رعاها، وقد خاب وخسر من ودّعها ونعاها.

د - والإنسان بعد ذلك كله هو حركة الكون الواعية، ضمن مسار الإرادة الإلهية الراحية، فإن كان كذلك غدا ربانياً تحقق بكل صفات المرّبي والمعلم العزل، وإلا فهو اللاهث، النكل الطاعي: (كلا إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) العلق/6-7، كما أخبرنا رب العزة جلّ شأنه.

ولذا فإنّ سعياً كهذا الذي ترونه أمامكم، إذ ينصبّ على إقامة مثل هذه الندوات، إن هو إلا وفاء للإنسان، لأن تلمس الأسرار فيه، والجذّ في التعرف على أغواره، سيظلّ العلامة الفارقة للأمة الجادة الجيدة.

والشيخ ابن عربي واحد من الذين جدّوا في دراسة الإنسان، وقدموا في ذا الميدان محاور جديرة بالبحث والتمحيص، قد تحمل في ظاهرها تناقضات، لكنها بعد التنقيب بعيدة عن التناقض والتناقض.

لقد أخرجت منذ سبع سنين مؤلفاً عن الإنسان والإسلام، وأعدت طبعه منذ سنة تقريباً مع زيادات عليه، وها أنا اليوم أتقدم بدراسة متواضعة عن الإنسان في فكر ابن عربي، وستكون في

(٢) في رأي نيكلسون أنّ ابن عربي أول من استعمل عبارة "الإنسان الكامل" بينما يرى آخرون أنّ إخوان الصفا سبقوه بهذا، ويتجه بعض آخر إلى أنّ هذا المصطلح موغل في القدم حسب تعبير ماسنيون. ر: "الإنسان الكامل في الإسلام"، لعبد الرحمن بدوي، طبعة القاهرة، 1950.

(٣) ر: فصوص الحكم 55/1.

(٤) رواد البحاري في كتاب الاستئذان، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، وكذلك الإمام أحمد في مسنده.

الآتي القريب من الزمان بعون الله ملحقة بسابقتها في قرطاس واحد، والأمل العلمي المكتنف هو أن أتابع فأجمع أكثر وأكثر عن الإنسان، وهمتي القابع في وأنا أبحث تحقق بالمقولة للرائعة (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (٥)؛ وهذا يعني في النهاية تحققاً بالغاية التي خلقتنا من أجلها: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، الذاريات/56، والعبادة هنا على رأي حبر الأمة ابن عباس هي المعرفة (٦). وأنا أقول: إن التعبير بالعبادة هو تعبير باللازم عن الملزوم عنه، بالمعرفة أساس العبادة، والعبادة ناتجة عن المعرفة، ولازمة من لوازمها.

2- أهمية الإنسان عند ابن عربي:

أ - لقد امتد الإنسان وما يتعلق به على جل مساحة كتابات ابن عربي، فما من مصطلح للشيخ في فتوحاته، أو في فصوصه، أو في سائر كتبه الأخرى مخطوطها ومطبوعها إلا وله صلة وارتباط قريب أو بعيد، جلي أو خفي بالإنسان، وحين تتوجه فنقرأ "المعجم الصوفي" للباحثة الفاضلة الدكتورة سعاد الحكيم، فستجد أن أكثر المصطلحات تدور في فلك الإنسان في تجليات مختلفة، وتحديدات متنوعة، فمن الأب بكل المضافات إليه، إلى الإمام بصفاته كافة، إلى النبوة وأشكالها، إلى الإنسان لفظاً وحروراً وصنوقاً، إلى البيت ومجازاته، إلى التجلي وإشاراته، إلى الحب ومنطقاته، إلى الحق والحقيقة وتجلياتهما، إلى الولاية وسماتها، والقلب وأحواله، والشهود ومقاماته،.. الخ.

وستخرج بعد قراءتها، إن في كتب الشيخ مباشرة، أو في مؤلفات نقلت عنه، بقناعة لحمتها وسداها حرص الشيخ الأكبر على دراسة الإنسان، وترسيمه، وتقسيمه، وتقنيده، وتبيان مهمته وغايته، وتوضيح حقيقته أصلاً وفرعاً، وكماً ونقصاً، ودينياً وطيناً.

فالأمر في النهاية إنسان، وأريد بالأمر مايقابل الخلق الوارد في قوله تعالى: (ألا له الخلق والأمر)، الأعراف/54، والعبادة مدارها عليه في قوله عز شأنه، وهي ما أحبه الله من هذا الإنسان، وأراد به، بله وغياً وجوده به، كما رأينا: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات/56.

أما سر اهتمام ابن عربي بالإنسان فمرده إلى إسلامه أولاً، لأن الإسلام أوجب على أتباعه الاهتمام بالإنسان حماية ورعاية، فالله قال في القرآن الكريم: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)،

(٥) قال السمعاني: لا يُعرف مرفوعاً، وإنما يتكلم عن يحيى بن معاذ، وقيل في تأويله: "من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالتقدم، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء". ر: المقاصد الحسنة للسخاوي ص 657، والمحافظ السيوطي تأليف لطيف سعاد "القول الأشبه في حديث (من عرف نفسه فقد عرف ربه)؟" وقال عنه الشيخ محيي الدين: صح هذا الحديث عندنا من طريق الكشف. وقد وقع في أدب الدنيا والدين للماوردي عن عائشة سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه؟ قال: (أعرفهم بنفسه). ر: كشف الخفاء، ج 2، ص 363، ط، التراث نجل، تحقيق الفلاس.

(٦) ر: تفسير ابن كثير، حيث نقل عن ابن عباس، قال: (إلا ليعبدون)، أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير، ونقل ابن جريج عنه، "إلا ليعرفون"؛ أ. هـ. مختصر ابن كثير للصابوني ج 2/ص 384.

"الإنسان الحيوان هو الصورة الظاهرة التي بها جمع حقائق العالم فقط دون حقائق الحق" (21).
ويتابع الشيخ الأكبر توضيحه قائلاً:

"تقول في زيد إنه إنسان، وفي عمرو إنه إنسان، وإن كان زيد قد ظهرت فيه الحقائق الإلهية وما ظهرت في عمرو، فعمرو في الحقيقة حيوان في شكل إنسان" (22).

— وسر التفريق بين الكامل والحيوان من الإنسان. لحظة الشيخ من القرآن الكريم، فقد قال:

"وإنما فرقنا بين الإنسان والحيوان والإنسان الكامل الخفية: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك)، الانفطار الحيواني 6/7، فهذا كمال النشأة الإنسانية العنصرية الطبيعية، ثم قال القرآن: (في أي صورة ما شاء ركبك)، الانفطار 8/، إن شاء في صورة الكمال فيجعلك خليفة عنه في العالم، أو في صورة الحيوان، فتكون من جملته، يفضلك عن هذه الجملة المقوم لذاتك الذي لا يكون إلا لمن ينطبق عليه اسم الإنسان" (23).

— ويخالف الإنسان الكامل الإنسان الحيوان في الحكم الرزقي، لأن الإنسان الحيوان يرزق رزق الحيوان، وأما الكامل فله الرزق هذا وزيادة، والزيادة هذه رزق إلهي، وهو ما يتغذى به من علوم الفكر، بالإضافة إلى الكشف والدوق والفكر الصحيح. ومارتبة الإنسان الحيوان بالنسبة للكامل إلا كرتبة النسناس من الإنسان الحيوان (24).

وأما الإنسان الكبير فهو عند شيخنا الأكبر العالم بأسره، وقد ذكر ذلك في كتابه "بلغة الغواص"، فقال:

"إن العالم بأسره إنسان كبير وروحه الإنسان الكامل" (25).

"الإنسان وإن صغر جرمه عن جرم العالم فإنه يجمع العالم الكبير، ولهذا يسمى العقلاء العالم إنساناً كبيراً، ولم يبق في الإمكان معنى إلا وقد ظهر في العالم فقد ظهر في مختصره" (26)، الذي هو الإنسان.

وكانني بهذه العبارات قد استوحيت من بيتين قالهما الإمام علي كرم الله وجهه:

ودواؤك فيك، وما تبصر
وفيك انطوى العالم الأكبر

داؤك منك وما تشعر
وتحسب أنك جرم صغير

(21) ر: الفتوحات، 437/3.

(22) ر: الفتوحات، 396/2.

(23) ر: الفتوحات، 297/3.

(24) ر: الفتوحات، 357/3 و 396.

(25) ر: بلغة الغواص. نقلاً من المعجم الصوفي ص 158.

(26) ر: الفتوحات، 124/2.

نعم "الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير فكان الإنسان آخر مولد في العالم أوجده الله جامعاً لحقائق العالم كله وجعله خليفة فأعطاه قوة كل صورة موجودة في العالم" (27).

هذه لمحة من نفحة عن الإنسان عند هذا العلم فهل من مستفيد منها؟!

وهل من داعٍ رشيد يستبدلها بتلك النظرة التي جاءت على لسان "فوكوياما"، و"هنتنغتون"، في كتابيهما "الإنسان الأخير"، و"صراع الحضارات".

وهل من ساعٍ جاد كي يتبنى مفهوم الإنسان الكبير الذي هو العالم، مع روحه الذي هو الإنسان الكامل، ليحلّه محلّ عولمة تعني تعويمَ عالم لا يشكّل إنساناً كبيراً روحه إنسان كامل، بل روحَ عالمٍ عولمة اليوم إنسان مستعلٍ بغير حق، مستندُه القوة المادية ليس إلّا، فهل من مذكّر، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله.

والسلام عليكم.

